أبو مصعب الزرقاوي _ الجيل الثاني في تنظيم القاعدة

بسم الله الرحمن الرحيم نبدأ :
بدأ قبضايا في شوارع الزرقاء وتتلمذ علي شيخ المجاهدين العرب عبدالله عزام ومنظر السلفية المقدسي
دعا عشيرته بني حسن الي استرداد القدس..
وفي سجن سواقة اكتمل الخط الجهادي عند الناشط الاردني
فؤاد حسين
الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة

أسلوب البحث العلمي المعتمد علي القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخري الاستماع إلي شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف علي المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخري الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم علي أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلي هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلي أن وصلنا إلي مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولي كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتي عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة

الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا علي المعلومات التي طرحت للمرة الأولي، وعلي الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك علي تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقدا له وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء علي القدوم الثاني للزرقاوي إلي أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلي ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلي باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلي العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك.

وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل،

وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان علي تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين. وللوقوف علي مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق علي حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلي كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتي عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلي تحقيق هذه الاستراتيجية.

شخصية الزرقاوي والابعاد الثلاثة

الزرقاوي، هو أحمد فضيل نزال الخلايلة، وكنيته أبو مصعب، والزرقاوي لقب لم يعرفه الأردنيون من قبل، وهو نسبة إلي مدينة الزرقاء التي ولد فيها في الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1966، معظم سكان مدينة الزرقاء التي تبعد نحو 25 كلم شرق العاصمة عمان من الطبقتين الفقيرة والمتوسطة.

ولد الزرقاوي لأسرة فقيرة محافظة تنتمي إلي عشيرة بني حسن وهي من كبري عشائر الأردن، موطنها البادية الأردنية الممتدة من حدود الأردن مع العراق وسورية إلي مدينة الزرقاء وجرش الواقعتين في وسط الأردن والمناطق المحيطة بهما.

والابعاد الثلاثة التي شكلت شخصية الزرقاوي الحالية؛ الأول تتعلق بنشأته، والثاني يرتبط بالبعد الديني والمدرسة المذهبية التي قنع بها، والثالث الانعكاس التاريخي.

نشأة الزرقاوي

نشأة أحمد فضيل البدوية وعلاقته الخاصة بوالدته كانت الضلع الأساس في تشكيل شخصيته، تجد الطيبة فيه عفوية وحبه للآخرين عفوياً، وتجد إقباله علي مساعدته للآخرين كذلك عفويا، ولا تغيب بداوته عنه في فهمه أو علاقته مع الآخرين، وبمقدار ما هو معروف عن البدوي شهامته وشجاعته وكرمه، فقد جُبل البدوي أيضا علي تمسكه بثأره، فلا ينسي إساءة عدوه أو خصمه أو غريمه مهما طال الزمن، ويمتلك البدوي في العادة قدرة هائلة علي الصبر ليصل إلي ثأره، وما يُتداول في الموروث الشعبي عن بدوي تعجل في الآخذ بثأره بعد انتظار دام أربعين عاما، فيه دلالة عميقة علي طول صبر البدوي، هذا الصبر لا يقتصر علي الأخذ بالثأر، بل يتعداه إلي الصبر علي شظف العيش وصعوبات الحياة، وانتظار قطف الثمار!

عاش الزرقاوي طفولته في حي رمزي في الزرقاء، وهو من الأحياء الشعبية المكتظة. علي بعد عشرات الأمتار من ذلك الحي، كان الزرقاوي يلهو مع أقرانه في المقبرة الواقعة في حي معصوم، الذي يعتبر من أقدم الأحياء الشعبية في مدينة الزرقاء، التي ازدهرت نتيجة وجود أقدم معسكرات الجيش الأردني فيها، منذ بدايات تأسيس المملكة. أصبحت الزرقاء لاحقا مركز استقطاب سكاني، حتي لكثيرين ممن يعملون خارجها، لانخفاض كلف المعيشة فيها. اتسعت المدينة حتي أصبحت، ثالث أكبر مدن الأردن سكانا. غالبيتهم من الموظفين والصناع، بعد أن كانت موطنا للبدو الذين يعمل أبناؤهم في صفوف الجيش. ولأن مدينة الزرقاء اتسمت بدايات بنائها وتوسعها بالعشوائية، كانت تفتقر

للخدمات العامة، فلم يكن أمام الصبية بد من اتخاذ المقبرة ـ في بدايات نشأتها ـ مكانا للهو واللعب، لافتقار المدينة إلي المتنزهات، وأماكن اللهو واللعب. والمقبرة، كونها مشاعا لجميع الصبية في تلك المدينة الصغيرة حينذاك، كان يرتادها الأشرار والطيبون، فعايش الزرقاوي منذ بواكير وعيه، الخير والشر في آن معا، وتعايش مع التناقضات، علاوة علي ما يتركه قضاء الوقت الطويل بين القبور من تصالح مع التناقض بين فكرتي الموت والحياة. في تلك المقبرة نسج الزرقاوي أهم صداقاته.

درس الزرقاوي حتي الصف الثاني الثانوي وحصل علي معدل (87 %) في نهاية العام الدراسي، لكنه لم يكمل الثانوية العامة. وعمل لمدة قصيرة لا تتعدي شهرا واحدا في بلدية الزرقاء/قسم الصيانة، لكنه ترك العمل بناء علي طلب والده.

عرف عن أبو مصعب في تلك الفترة أنه من قبضايات الحي لا يجرؤ أحد علي التعدي علي أي من أصدقائه أو أقاربه، كانت نفسه أبية لا تقبل الظلم، صاحب نخوة يلبي طلب أصدقائه ويدافع عنهم، كانت نفسه وثابة تبحث عن شيء يطفيء عطشه للرجولة، وفعل شيء نافع.

بعد أن اشتد عوده في مدينة الزرقاء التي لا يكاد يخلو شارع من شوارعها من مسجد، وغادر سن المراهقة، أصبح مسجد عبد الله بن عباس المجاور لبيته، بيته الثاني. في هذا المسجد بدأ الزرقاوي نسج صداقات جديدة، الأصدقاء الجدد جلهم ينتمي إلي جماعات إسلامية مختلفة، لكن كل تلك الجماعات علي اختلاف اجتهاداتها، تُجمع علي تحريض الشباب علي الجهاد، فأخذت أفكار الجهاد والاستشهاد تتنامي عنده، بعد أن أصبح رواد المسجد، هم الأصدقاء الأكثر قربا، مغادرا

كل تفاصيل الطفولة والصبا التي بناها في المقبرة، دون أن يغادر علاقاته التي بناها فيها أيام الصبا.

هجرته الأولي إلي أفغانستان

الجهاد ضد الشيوعيين المحتلين لأفغانستان، كان الطريق المتاح في الأردن ـ مثل معظم الدول العربية حينذاك ـ لعشاق الجهاد والاستشهاد، مع أن فلسطين، كانت الأقرب للأردنيين عامة والزرقاوي خاصة، جغرافيا ووجدانيا، بحكم التركيبة الديموغرافية لسكان الأردن.
في الرسالة التي وجهها الزرقاوي إلي أبناء عشيرته (بني حسن)، والتي يدعو فيها أبناء عمومته إلي العمل من أجل رفع راية الإسلام والانخراط في الجهاد ضد كل من يحول دون مقاتلة الإسرائيليين المحتلين لفلسطين، يعلن الزرقاوي أن جذور عشيرته تعود إلي القدس: يا قوم عودوا لدينكم فهو مجدكم وعزكم ومجد آبائكم وأجدادكم الذين نالوا شرف الانضواء تحت لواء صلاح الدين الأيوبي في حطين وشرف المشاركة في تحرير القدس مع قبائل أخري، فأقطع صلاح الدين للقبائل التي شاركت معه أراضي حول القدس من أجل حمايتها من الصليبيين وقال: هذا مسري جدكم فحافظوا عليه (يقصد النبي صلي الله عليه وسلم)، وكانت حصة بني حسن في الجزء الجنوبي الغربي من القدس حيث عاشوا وتكاثروا في قري الولجة وعين كارم والمالحة وغيرها... يا قوم... أجدادنا يومها حافظوا علي تلك الأراضي وحموا القدس الشريف ، فعاشوا عزة الإسلام وقوته، أباة مخلصين .

لكن الزرقاوي شد الرحال كغيره من الشباب الأردني الإسلامي المتحمس إلي أفغانستان، أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، حيث عبد الله عزام وأسامة بن لادن. بعد أن استمع إلي محاضرة ألقاها عبد الرسول سياف في الأردن، هذه المحاضرة كانت النقطة الفاصلة لديه في اتخاذ قرار الالتحاق بالمجاهدين في أفغانستان.

عبد الله عزام كان من أوائل العرب الذين توجهوا إلي أفغانستان، لمشاركة المجاهدين الأفغان قتال جيوش الاتحاد السوفييتي الداعم لحكم الشيوعيين هناك، أقنعه بن لادن بالانضمام إلي المجاهدين في أفغانستان، بدل الدراسة في إحدي الجامعات السعودية، وكان يُنظر إليه في أوساط المجاهدين الأفغان علي أنه قائد وملهم كل المتطوعين العرب والمسلمين. يعتبر عبد الله عزام إلي جانب بن لادن، مؤسس ظاهرة الأفغان العرب، التي ما لبثت أن انتشرت في البلدان العربية بعد خروج جيوش الاتحاد السوفييتي من أفغانستان، وتوجه إليها أصابع الاتهام بأنها وراء الكثير من تصاعد المصادمات المسلحة مع الأنظمة العربية الحاكمة. وعبد الله عزام من القيادات التاريخية الأساسية لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وكانت ولا تزال تلك الجماعة تعيش حالة وفاق مع نظام الحكم منذ نشأتها، رغم حالات المد والجزر التي تعتري تلك العلاقة بين الفينة والأخري.

كانت الأنظمة العربية الحاكمة ـ التي يرتبط معظمها بشكل أو بأخر بعجلة السياسة الأمريكية ـ تشجع توجهات الشباب الالتحاق بالمجاهدين في أفغانستان، حيث كانت الحرب الباردة علي أشدها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فكان المتطوعون يغادرون الأردن

إلي أفغانستان جهارا نهارا، وتجمع أموال التبرعات بشكل علني من المساجد والأماكن العامة لتمويل سفر الأعداد الكبيرة من الشبان إلي أفغانستان. في الوقت الذي كانت الأموال الخليجية والسعودية تحديدا، تتدفق علي المجاهدين الأفغان استجابة لمطالب واشنطن الحريصة علي إلحاق الهزيمة بخصمها اللدود ـ موسكو. في تلك الفترة، كان أئمة المساجد في الضفة الغربية وقطاع غزة، ممن ينتمون إلي المدرسة الفكرية القريبة من الإخوان المسلمين، يكفرون من يقومون بعمليات فدائية ويفجرون أنفسهم بأحزمة ناسفة في المناطق الفلسطينية المحتلة، فلم يكن بد أمام الزرقاوي الباحث عن فرصة للجهاد من التوجه إلي أفغانستان، للالتحاق بعبد الله عزام، أواخر الثمانينيات من القرن الماضي.

تلقي الزرقاوي تدريبه العسكري، ونمت ثقافته الدينية والسياسية في ظل القتال المحتدم بين المجاهدين من عرب وأفغان مع جيوش الاحتلال السوفييتي. شارك في فتح خوست عام 1991م وشهد دخول المجاهدين إلي كابل، قاتل علي أسخن الجبهات وتحديدا مع جلال الدين حقاني وقلب الدين حكمت يار، وهما الزعيمان الأفغانيان المطلوبان اليوم علي القوائم الأمريكية إلي جوار أبو مصعب الزرقاوي.

محطة افغانستان

في أفغانستان تشكل الضلع الثاني من شخصية الزرقاوي، وكان هذا الضلع هو الأساس في تشكيل نمطه الفكري، النصف الأول من هذا الضلع شكله وأسسه فكر عبد الله عزام، وأكمله لاحقا، عصام البرقاوي المعروف باسم أبو محمد المقدسي الذي التقي معه عام 1989في

بيشاور بالباكستان.
قتال الزرقاوي ضمن جبهات الأفغان جاء أقرب إلي خط عبد الله عزام ـ الذي عُرف بشيخ المجاهدين العرب، وقد تأثر به كثيرا؛ كان يقرأ كتاباته، يستمع إلي محاضراته، يردد أقواله كثيرا.
بعد انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان، واشتعال القتال بين الفصائل الأفغانية، لم يعد للمجاهدين العرب عدو يقاتلونه، مما قد يكون أسهم في تبخر أحلامهم الجهادية بأفغانستان، فما كان أمام المجاهدين العرب القادرين علي العودة إلي بلدانهم، دون التعرض لمخاطر أمنية إلا العودة، والبحث عن عدو جديد، ويبدو أن هذا ما دفع الزرقاوي للعودة إلي الأردن، لتأسيس تنظيم، يجسد رؤياه. فاتفق مع المقدسي ـ فلسطيني المولد، القادم من الكويت، حيث كان أهله يقيمون ـ علي ذلك منتصف عام 1993، بهدف تعبئة الشباب بالفكر الذي يؤمنون به، كمرحلة أولي نحو تجميع السلاح والقنابل، للتدريب أولا، والقيام بعمليات عسكرية ضد إسرائيل ثانيا.
بدأ أبو محمد المقدسي المنظر الأساس لهذا التنظيم ـ الذي أطلقوا عليه تسمية جماعة التوحيد ـ بإلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد وأماكن تجمع الشبان، بهدف ضمهم إلي مجموعتهم الجديدة. وجلهم بما فيهم المقدسي والزرقاوي كانوا عديمي الخبرة التنظيمية، فوقعوا بشراك الأجهزة الأمنية الأردنية بعد وقت قصير من بدء العمل، فزج بهما مع بقية أفراد التنظيم بالسجن في 29 آذار (مارس) عام 1994، وقدموا للمحاكمة أمام محكمة أمن الدولة، بقضية أطلقت عليها السلطات الرسمية الأردنية اسم بيعة الإمام.

بيعة الإمام

كان تأسيس جماعة التوحيد مع المقدسي الذي قاده إلي سجن دام خمس سنوات الخطوة العملية الأولي في رحلة الزرقاوي اللاحقة، وكان السجن المحطة الأهم في تكوين شخصيته.

لم يكن لرحلة الزرقاوي الأولي إلي أفغانستان أهمية كبيرة في تكوين شخصيته، إذ لم يتسن له في تلك الفترة أن يكون أكثر من عنصر بين آلاف العناصر العربية التي توافدت إلي أفغانستان، في وقت بات القتال فيه بين المجاهدين وجيوش الاتحاد السوفييتي في نهاياته، فكان أن فقدت ساحات القتال ألقها، مما أفقد الجميع ـ بمن فيهم الزرقاوي ـ فرصة

إظهار مهاراتهم وتمايزهم.
كانت للسجن بصمات واضحة المعالم في شخصية الزرقاوي التي تبلورت لاحقا، وأصبحت شخصية حدية لا وجود للون الرمادي فيها، إذ اصبح رجال الشرطة بكل تخصصاتهم، والقضاة بكل مراتبهم ومواقعهم وكل أركان الحكم، في نظره، أعوانا للأنظمة الحاكمة، التي هي وفق قناعاته طواغيت، يجب محاربتهم.
بعد انتهاء مرحلة التحقيق، رُحّل الزرقاوي إلي سجن سواقة الصحراوي الذي يقع علي بعد خمسة وثمانين كيلو مترا جنوب العاصمة عمان، بعد رحلة شملت عددا من السجون. ما لبث أن التحق به رفاقه المعتقلون علي ذمة القضية ذاتها، وأصبحوا كلهم معا في سجن واحد.
كان سجن سواقة في تلك الفترة يضم أكثر من ستة آلاف معتقل، الجناح السادس كان أهم أقسام السجن، إذ كان يحتضن العديد من المعتقلين السياسيين من جميع ألوان الطيف الإسلامي، كل طيف خصصت له غرفة مستقلة في ذلك الجناح الواقع في أقصي الطرف الشرقي من السجن. إذ كان في أحد تلك الغرف عطا أبو الرشته مسؤول حزب التحرير في الأردن، وهو حاليا أمير الحزب علي مستوي العالم، ومعه عدد من قادة التنظيم، وجلهم جامعيون. وكان في الغرفة المقابلة لهم النائب الأردني الإسلامي المعارض المهندس ليث شبيلات، يشاركه الغرفة أعضاء تنظيم عرف باسم الأفغان العرب، مع أن أيا منهم لم يزر أفغانستان في حياته!! ومعهم أيضا؛ ثلاثة شبان من شمال الأردن، أعتقلوا بقضية عرفت باسم الغام عجلون، وثلاثتهم جامعيون، إضافة إلي الكثيرين المتهمين بتشكيل جماعات إسلامية مختلفة. في حين أن جماعة المقدسي

والزرقاوي جلهم لم يكمل دراسته باستثناء المقدسي الذي أنهي تعليمه الجامعي بإحدي الجامعات السعودية متخصصا بالعلوم الشرعية، وأبو المنتصر الحاصل علي بكالوريوس الآداب. كان المقدسي أميرا لجماعة التوحيد (بيعة الإمام)، ذلك أن كل جماعة إسلامية سواء أكانت داخل السجن أم خارجه، لا بد لها من أن تؤمر عليها أميرا، تكون له كلمة الفصل في كل مناحي الحياة، كلامه ملزم للجميع، فهو مزود بنص ديني أن علي الجميع طاعته، ومخالفته معصية. لم يكن المقدسي رجلا عاديا، فهو صاحب نظريات يُعتد بها، يعتبر من المنظرين الأساسيين في العالم العربي والإسلامي للمنهج السلفي الأصولي، له العشرات من الكتب والمؤلفات في هذا الجانب، من أشهرها كتابه (ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين)، وهو مكرس لفكرة التوحيد لله وحده، مكفرا كل من يحكم بغير الشريعة الإسلامية ويتخذ من القوانين الوضعية دستورا للحكم، وهذه الفكرة المبنية علي فهم محدد للتوحيد يتجاوز أداء العبادات إلي ممارسات حياتية يومية، والتشريع منها بشكل خاص، هي الركن الأساس في فكر الجماعات السلفية التي تتكئ عليها في تكفير كل الأنظمة العربية والإسلامية الحاكمة، علاوة علي تكفير كل ركائز هذه الأنظمة من مؤسسات وأجهزة بما فيها المجالس النيابية. والكتاب الثاني ذو الأهمية القصوي للمقدسي، هو في تكفير آل سعود حكام العربية السعودية (الكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية)، وكان لهذا الكتاب أهمية قصوي في زرع بذور العنف الذي تشهده السعودية حاليا، إذ اعترف من قاموا بتفجيرات الخبر والرياض منتصف التسعينيات من القرن الماضي، أنهم تأثروا

بمؤلفات المقدسي، بل أن أحد المتهمين وهو عبد العزيز المعثم، اعترف قبل إعدامه بالسعودية، أنه التقي المقدسي في الأردن وأخذ منه مؤلفاته، وخاصة مؤلفه المتعلق بآل سعود، وعمل علي نشره بالجزيرة العربية والخليج، وقناعة بما جاء به قام بتنفيذ تلك التفجيرات. ورغم محاولات إلصاق المقدسي بهذه العمليات، إلا أنه نفي بشدة في أجوبة خطية ردا علي أسئلة طرحناها عليه أن يكون قام بأكثر من البحث والتأليف والاجتهاد.

إذا كان ذاك حال من قرأ كتب المقدسي وتأثر بها، فكيف سيكون مآل أبو مصعب الذي أسس معه تنظيما وقضي معه في السجن سنين عدة.

عاش الزرقاوي الفترة الأولي من سجنه في كنف المقدسي، يتتلمذ علي كتبه وأفكاره، مستكملا ما رسخ في قناعاته من عبد الله عزام، مستمعا للحوارات التي كانت تجري بين المقدسي وبقية قادة الفكر الإسلامي في الأردن، المعتقلين معهم بذات السجن، في تلك الأثناء كان الزرقاوي يعمل علي تطوير ثقافته بالعلوم الشرعية، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب.

هذا التشدد الذي كان يمثله المقدسي، لم يكن كافيا بنظر الزرقاوي، فاستطاع بشخصيته الكارزمية التي يمتلكها، استقطاب أعضاء التنظيم في السجن ليسلموا له راية الإمارة، وبات هو الآمر الناهي للمجموعة داخل السجن، وأخذ يفرض آراءه علي كل أعضاء المجموعة بمن فيهم المقدسي. الذي انزوي جانبا، متفرغا للكتابة والتأليف. كان ذلك في صيف عام 1996.

هكذا التقيت بالزرقاوي

في ذلك الصيف، قادتني مهنة المتاعب إلي سجن سواقة ـ حيث يوجد الزرقاوي ـ اثر مقالات صحافية كتبتها منتقدا السياسية الداخلية لرئيس الوزراء الأردني حينذاك عبد الكريم الكباريتي، خاصة لجهة الحريات العامة وسياسته الاقتصادية التي أدت إلي رفع سعر الخبز، وهو المادة الغذائية الأساسية لعامة الأردنيين، مما أدي إلي اندلاع احتجاجات عنيفة في مختلف أنحاء الأردن. كانت حملة الاعتقالات في ذلك الصيف واسعة، شملت معظم ألوان الطيف السياسي في الأردن؛ من الماركسيين في أقصي اليسار، إلي الإسلاميين في أقصي اليمين، وطوال اكثر من شهرين قضيتها بالسجن، قبل أن يفرج عني بتدخل ملكي، لم يلفت أبو مصعب نظري داخل السجن سوي مرات محدودة، خلاف معلمه وأبيه الروحي أبو محمد المقدسي الذي كان يحتل كامل المشهد.

كان أول من استقبلني لدي وصولي سجن سواقة، النائب ليث شبيلات الذي تربطني به علاقة شخصية قوية، ومنذ اللحظة الأولي، نبهني إلي ضرورة تجنب زيارة غرفة الزرقاوي وجماعته، وقال لي: أنا نائب طروحاتي ومنطلقاتي إسلامية ولا يقبلونني، فكيف ستكون نظرتهم إليك وأنت لست إسلاميا، لكن حين أحس بفضولي الصحافي في التعرف إليهم، قال ناصحا: إذا كنت لا تريد الأخذ بنصيحتي، فكن حذرا في كلامك معهم، فان ضيفوك كوبا من الشاي، فهذا مدعاة اطمئنان، وإلا فأحسن الخروج من عندهم بسرعة كما أحسنت الدخول، زاد هذا الحديث من فضولي الصحافي، فتوجهت منذ اليوم الأول إلي غرفتهم، كان يجلس في صدرها أبو محمد المقدسي، والزرقاوي. بعد إلقاء التحية عليهما

قدمت نفسي لهما قائلا: أنا صحافي متابع للقضايا السياسية، ولا أنتمي لأي من الجماعات الإسلامية، لكن لدي الرغبة في التعرف علي تفاصيل قضيتكم التي تابعتها عبر وسائل الإعلام، فهل أنتم علي استعداد لتحدثوني عنها بالتفصيل، وأعدكم بنشر روايتكم بوسائل الإعلام، رحبوا في أجمل ترحيب، ووضع الزرقاوي أمامي كوبا من الشاي، مما أثلج صدري، وأشعرني بالراحة والطمأنينة، ودامت الجلسة أكثر من ساعتين. كان النقاش خلالها محصورا مع المقدسي حول التطورات السياسية بالمنطقة، ولم يتدخل الزرقاوي بالنقاش إلا مرة واحدة، حين سألني عن المعاملة التي لقيتها أثناء فترة التحقيق قبل ترحيلي إلي سجن سواقة، بعد أن استمع أبو مصعب إلي اجابتي، حدثني بما جري معه خلال اعتقاله بزنزانة انفرادية علي مدي ثمانية أشهر ونصف الشهر، وقال أنه فقد أظافر قدميه نتيجة التقرحات التي أصابتهما جراء التعذيب الشديد. أدركت حينها أنه إذا ما تسني للزرقاوي الخروج من السجن فسيغادر الأردن فورا، بلا عودة!

الزنزانة الانفرادية

بعد أسبوع من وصولي إلي سجن سواقة، وضعت إدارة السجن الزرقاوي في زنزانة انفرادية، عقوبة له علي تلاسنه مع أحد الحراس، لكسر شوكته بين مجموعته، كونه أميرهم، حاول المقدسي ورفاقه مفاوضة إدارة السجن لاعادته إليهم، لكن انقضي أسبوع من المماطلة والتسويف، فقررت مجموعة الزرقاوي العصيان داخل السجن، وطلبوا منا نحن المعتقلين السياسيين أن نتضامن معهم، ففعلنا، فتأزم الموقف وازدادت حدة التوتر بين الإدارة من جهة، وبقية كامل المعتقلين من جهة ثانية، ولما وصلت الأمور إلي حافة الصدام، اقترح المعتقلون السياسيون أن أفاوض باسم الجميع إدارة السجن لاعادة الزرقاوي، وافق المقدسي علي المقترح، فأبلغت الضابط المناوب بضرورة التفاوض لإيجاد مخرج للازمة، قبل أن تتفاقم الأمور وتصل إلي ما لا يحمد عقباه، رافقني للتفاوض أبو المنتصر من مجموعة الزرقاوي،

فالتقينا مع مدير السجن حينذاك إبراهيم خشاشنة، لكنه لم يبد مرونة، فتصاعد الموقف، وبلغ العصيان أوجه. أغلق المعتقلون كاميرات المراقبة، خلعوا الأسرة الحديدية وصنعوا منها أدوات حادة استعدادا للنزال، أغلقوا الأبواب الرئيسة للقسم مانعين رجال الأمن العام من الاقتراب للمكان، فعلم بالأمر مدير السجون الشريف أبو عصام، الذي وصل إلينا قرابة الفجر. تفاوضت معه نيابة عن المساجين لإخراج الزرقاوي من الزنزانة الانفرادية، فوافق علي أن يتم التنفيذ في اليوم التالي، حفظا لماء وجه مدير السجن. وحين عاد الزرقاوي في اليوم التالي إلي الجناح السادس، عاد لممارسة إمارته علي رفاقه، وعاد المقدسي الذي تولي الإمارة أثناء غياب الزرقاوي إلي البحث والتأليف.

كان الزرقاوي داخل السجن إنسانا بسيطا، هادئا، كثير الصمت، إذا كلمته يتكلم، وإذا لم تكلمه لا يتكلم، يقضي أوقات فراغه بحفظ القرآن والقراءات الدينية الأخري، ويهتم كثيرا بالصلاة وقيام الليل وكل ما له علاقة بتغذية البعد الروحي، أما القراءات الأدبية أو السياسية أو أية قراءات بعيدة عن المواضيع الدينية، فلا مكان لها عنده، وبعيدا عن القراءة كان الزرقاوي يهتم بممارسة التمارين الرياضية، إذ كان شديد الحرص علي بنيته الجسدية، وفي فترات الصباح كان يقوم بزيارات للمعتقلين علي قضايا مدنية أو جنائية، كان يسعي لتمتين علاقاته الشخصية معهم، تمهيدا لدعوتهم إلي العودة لله والتوبة من ذنوبهم، مطبقا لأمر مهم من أمور العقيدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بهدف إقناعهم بأفكاره تمهيدا لضمهم إلي تنظيمه، وقد حقق نجاحا مذهلا في هذا الجانب. وبات معروفا علي نطاق واسع أن

المئات من أصحاب السوابق الاجرامية في مدينتي الزرقاء والسلط في الأردن، باتوا الآن هو أكثر الشبان تشددا بدينهم، وكثيرون منهم قتلوا في معارك جرت بأفغانستان والعراق.
كان الزرقاوي داخل السجن يتعامل بشخصيتين، الأولي تلك التي يتعامل بها مع جماعته؛ كان لهم بمثابة الأب الحاني الكريم الودود اللطيف، يحرم نفسه من النقود القليلة التي هو بأمس الحاجة إليها، ويعطيها لأي من رفاقه يشعر أنه بحاجة إليها أكثر منه، يخلع ثيابه ويهديها لأي من رفاقه، إذا ما أحس أن أحدهم أبدي إعجابه بها.
وفي ذات الوقت أوامره نافذة علي مجموعته دون نقاش، ويصل الأمر أحيانا إلي إنزال العقاب في أي شخص من أعضاء مجموعته إذا ما خالف الأوامر أو خرج عن رأي الجماعة.
فالزرقاوي يتمتع بصفات قيادية أهلته لاحقا لبناء شبكة هي الأقوي في منطقة الشرق الأوسط.
الشخصية الأخري للزرقاوي، تلك التي يتعامل بها مع الجهات الرسمية داخل السجن، فهو جدي في غاية الجلافة، مهيب الجانب، يحصر التعامل معهم في أضيق الحدود الرسمية، لا يسمح لادارة السجن أن تتعامل مع أحد من مجموعته إلا من خلاله. مع أنه كان يميل إلي الانطواء والعزلة لدرجة أنه كان يلقب بالغريب، وهو اللقب الذي سجل اسمه به عند تطوعه للقتال مع المجاهدين في أفغانستان، كان يحب هذا اللقب ويحب أن يناديه الآخرون به، ويوقع به رسائله وبطاقاته لذويه. الزرقاوي لم يكن علي وئام مع بن لادن.. وسيف العدل ساعده.. شارك في تورا بورا وخرج منها سالما
معظم جماعة الزرقاوي من السوريين في الشتات والامن السوري كشف عن خلاياه وابلغ

الاردنيين عنها

علاقته بوالدته

كان لوالدته الأثر الكبير في استكمال الضلع الأول (نشأته)، وهو الضلع الأساس في تشكيل شخصيته، التي أثرت كثيراً في تنشئته، فقد ربته تربية محافظة في ظل ظروف اقتصادية غير مريحة لأسرة كبيرة تضم ثلاثة أولاد وسبع بنات. كان الزرقاوي في السجن، يترقب بشوق زيارات والدته اليه لحظة بلحظة، فلم يكن العالم المحيط به بالسجن من رفاق وامارة، كافيا لاشباع الجانب العاطفي من شخصيته، فكان اليوم المقرر لزيارة والدته اليه، يوما استثنائيا، اذ كان يلبس أفضل ما لديه لملاقاتها، وحين يسأله زملاؤه عن تأنقه غير المعتاد واهتمامه البالغ بهندامه، يقول: انها أمي.

هذه الأم كانت تحظي بمكانة كبيرة في ذاكرته ووجدانه، كتب اليها أرق وأعذب البطاقات التي كان يرسلها في المناسبات والأعياد الدينية، لكن جنوح مشاعره تجاهها لم يكن حائلا دون الالحاح عليها ضرورة الالتزام الصارم بالسلوك الديني القويم _ من وجهة نظره. وشوقه الي ملاقاتها الذي لا حدود له، دون أن يتمكن من تحقيقه بسبب ظروف اعتقاله، كان يستعيض عنه بالتمني بملاقاتها بالجنة في الدار الآخرة.

حبيبتي الغالية ان سألت عني فاني والحمد لله بخير ولا ينقصني سوي رؤية وجهك الطاهر ويعلم الله ما أحنُّ لشيء في هذه الدنيا أكثر مما أحن اليك يا ست الحبايب ولو بقيت العمر عند قدميك ما أوفيتك شيئا من حقك .

ولم تكن رسائل الزرقاوي وبطاقاته الي والدته، تعكس مشاعره تجاهها فحسب، بل كانت تعكس أيضا قناعاته الدينية، فرغم السن المتقدمة التي بلغتها والدته، مع ذلك كان يذكرها بضرورة عدم

مجالسة الرجال والسلام عليهم، حبا بها، لتدخل الجنة، ويلقاها هناك:

فكم كنت أتمني أن أكون عندك في رمضان لأدخل السرور علي قلبك وأعوضك ما فات من سنين سجني ولكن قضاء الله نافذ لا محالة والحمد لله علي نعمه الظاهرة والباطنة وهذا يا أمي دين الله غالي يحتاج الي بذل الغالي والرخيص فأصبري يا حنونة فان لم نجتمع في الدنيا فالملتقي عند الله الكريم الجواد الرحيم ولكن احرصي يا حنونتي أن تطيعي الله في كل شيء وأكثري من فعل الخيرات في رمضان واياك ومجالسة الرجال ومصافحتهم فهذا رجائي عندك لأنني يا أمي لا أحب لك الا طاعة الله والبعد عن سخطه .

لم يكتف الزرقاوي برسائله وبطاقاته التي كان يرسلها من سجنه الي والدته وذويه، بما تتدفق به قريحته من أشعار وخواطر، بل كانت شدة الشوق والوجد اليهم تحيله فنانا يرسم من الكلمات لوحات فنية، تارة بالتفنن بالتخطيط، وتارة أخري بالرسومات المعبرة عما يجول في خاطره، بما تدلل عن عمق ارتباطه الأسري بوالدته وبقية أفراد عائلته. وحين غادر الي الباكستان بعد خروجه من السجن أرسل وراء والدته وزوجته للحاق به هناك، بيد أن والدته مكثت عنده بعض الوقت وعادت الي الأردن.

الزرقاوي متزوج من سيدتين له من الأولي أربعة أطفال أكبرهم الطفلة آمنة وعمرها (14) سنة، روضة وعمرها (11) سنوات، محمد وهو الولد الذكر وعمره (9) سنوات، والصغير مصعب وعمره (7) سنوات.

الضلع الثالث لشخصية الزرقاوي له بعد تاريخي، فلا يمكن فهم شخصية الزرقاوي ومحاولة استشراف مستقبل تنظيمه والخطوات التي

يمكن أن يقدم عليها ما لم ندرس شخصية نور الدين زنكي. الذي يستحوذ علي اعجاب الزرقاوي بشكل كبير.

فأينما حل الزرقاوي أو ارتحل يبحث عن الكتب التي تتحدث عن نور الدين، وأفضل الهدايا التي كان يتلقاها ممن عرفوه كانت كتب التاريخ التي تفصل الحديث عن جهاد وفتوحات نور الدين زنكي ضد الصليبيين.

من هنا يمكننا الاجابة علي السؤال المهم: لماذا اختار الزرقاوي دون قادة القاعدة العراق مستقرا له بعد احتلال الجيوش الأمريكية لأفغانستان؟ هل يريد أن ينطلق من الموصل لتحرير العراق وتوحيد بلاد الشام وشمال العراق مع مصر تمهيدا لتحرير بيت المقدس؟ وهل يمكننا أن نأخذ ببعض النظريات التي تذهب الي حد القول أن صناع التاريخ يتقمصون شخصية بطلهم ويسيرون علي خطاه لاعادة كتابة التاريخ؟

من خلال قراءة سيرة نور الدين زنكي أمكننا فهم سبب اعتماد الزرقاوي في بداياته علي عناصر من شمال سورية (حلب، حماة، اللاذقية)، ومن هنا يمكننا فهم اتخاذه شمال العراق ومنطقة الجزيرة علي ضفاف الفرات قاعدة أولي له لمنازلة قوات الاحتلال الأمريكي في العراق.

أدبيات الزرقاوي السياسية في السجن

الكلمات العذبة، والرقة البالغة التي نلمسها في مراسلات الزرقاوي الي والدته وذويه، كان النقيض لها في مرافعته التي قدمها أمام محكمة أمن الدولة في الأردن، أثناء النظر بالقضية المتهم بها (الانتساب الي جماعة بيعة الامام). هذه المرافعة التي جري العرف أن

تكون دفاعية تفند ما وُجه اليه من تهم، كانت لائحة اتهام ضد القضاة ونظام الحكم السياسي الذي يتبعون اليه، تهمتهم أنهم يحكمون بالقوانين والدساتير الوضعية، وليس بما تمليه الشريعة الاسلامية، وما أنزل به الله:

أيها القاضي بغير ما أنزل الله:

اذا عرفت هذا، وظهر لك أن الكفر البواح والشرك الصراح اتخاذ غير الله مشرعا ـ سواء كان هذا المشرع عالما أو حاكما أو نائبا أو شيخ عشيرة ـ وعلمتم أن الله قد حكم علي الشرك في كتابه، فقال: ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

ثم علمتم أن المادة 26 من دستوركم الوضعي تنص علي:

أـ السلطة التشريعية تناط بالملك وأعضاء مجلس الأمة.
ب ـ تمارس السلطة التشريعية وغيرها صلاحياتها ومهامها وفقا لمواد الدستور.
عرفتم أن كل من قبل بهذا الدين المحدث والكفر البواح المناقض لدين الله تعالي وتوحيده، أنه قد اتخذ هؤلاء المشرعين أربابا من دون الله تعالي، يشركهم مع الله في عبادته .
خرج الزرقاوي من السجن في شهر آذار (مارس) عام 1999 نتيجة عفو ملكي عام أصدره العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني بمناسبة توليه الحكم، بعد وفاة والده الملك حسين، في محاولة لتبييض السجون، مزيحا عن كاهله ارث والده السياسي، من خصوم ومريدين، لكن يبدو أن الزرقاوي قد عُرض عليه خياران لا ثالث

لهما، أما مغادرة الأردن ليريح ويستريح، واما العودة الي السجن ثانية. قرر الزرقاوي الذي كان تواقا للحرية، مغادرة الأردن بعد ستة أشهر من الافراج عنه، خلاف معلمه أبو محمد المقدسي الذي كان يعتبر دوره محصورا بالمجال الدعوي والتنظيري، في حين كان الزرقاوي يري أنه خُلق للعمل الميداني. الأفكار التي تشربها الزرقاوي خلال فترة الاعتقال، حملها معه حين غادر السجن

محاولة السفر للشيشان

توجه الزرقاوي فور مغادرته الأردن الي باكستان، محطة مؤقتة، للسفر الي الشيشان التي كان يري أنها اكثر حاجة من غيرها للمجاهدين العرب، خاصة وأن الساحة الأفغانية كانت حينذاك ملتهبة بمعارك داخلية طاحنة بين حلفاء الأمس. رغب الزرقاوي أن ينأي بنفسه عن تلك الصراعات الداخلية، لكن السلطات الباكستانية اعتقلته بسبب انتهاء مدة الاقامة الممنوحة له، قبل أن يكمل ترتيب اجراءات سفره الي الشيشان، وبعد اعتقال دام ثمانية أيام في مدينة بيشاور، قررت السلطات الباكستانية ابعاده، فلم يكن في تفكيره قط العودة الي الأردن، مما اضطره لاختيار أفغانستان مكرها.
رحبت القاعدة بعودة الزرقاوي اليها، بيد أن أبو مصعب لم يكن علي توافق تام مع بن لادن، وهذا حال دون انخراطه مجددا في تنظيم القاعدة، فما كان من الزرقاوي الا الاعتذار عن مواصلة مشواره مع القاعدة. لكنه اتفق معها علي التدريب في معسكراتها، لحين الاتفاق علي ترتيبات جديدة.

محمد مكاوي المعروف باسم سيف العدل، وهو الرجل الثالث في تنظيم القاعدة، عرض علي الزرقاوي مساعدته بكل ما يحتاج اليه، اذا ما قرر البدء بعمل جديد، بعد أن اتفق مع بن لادن علي ضرورة استيعاب الحالات التي لا تتفق مع القاعدة بشكل كامل، مثل حالة الزرقاوي، كما سيأتي تفصيله لاحقا. لاقي هذا العرض هوي في نفس الزرقاوي الذي قرر بناء معسكر خاص به في مدينة هيرات الواقعة غرب أفغانستان علي الحدود الايرانية، وبدأ مرحلة جديدة من مسيرته في أواخر عام 1999. حيث بدأ اتباعه الذين يعرفون باسم جند الشام في التوافد اليه في نهاية ذلك العام، الي معسكر هيرات، حيث تلقي دعما كاملا من تنظيم القاعدة وحركة طالبان.

استقلال الزرقاوي عن تنظيم القاعدة تكرس بشكل كامل قبل الحرب الأمريكية علي أفغانستان فلم يكن راضيا تماما عن أسلوب عملها، حيث كان يأخذ عليها عدم قسوتها في ضرب أعدائها، وأن العمليات ينبغي أن تكون أكثر دموية وايلاما، فأي نذير يوحي أبو مصعب بقدومه لأعدائه. لكن هذا الخلاف لم يؤد الي قطع صلات الود مع قادة القاعدة.

كان الساعد الأيمن للزرقاوي في بناء معسكره الخاصة في هيرات، عبد الهادي دغلس وخالد العاروري (أبو القسام)، وكانا من رفاقه المخلصين في السجن وقبله، ولم يمكث العاروري طويلا في الاعتقال، بسبب عجز السلطات الأمنية في الأردن عن توفير الأدلة المادية اللازمة لادانته أمام المحاكم، وكان العاروري الشخص الوحيد الذي غادر الأردن برفقة الزرقاوي الي باكستان، استمر هذان الشخصان في اخلاصهما للزرقاوي أثناء تأسيس

شبكته الخاصة، حيث عملا علي استقطاب المتطوعين العرب الباحثين عن الجهاد في أفغانستان الي هذه الشبكة وخاصة الأردنيين منهم والفلسطينيين.

لم يكن التغيير في رحلة الزرقاوي الثانية الي أفغانستان مقتصرا علي العامل الذاتي، المتعلق بتأسيس شبكته الخاصة فحسب، بل كان التغيير أيضا متعلقا بالعامل الموضوعي، فقد ذهب الي أفغانستان في المرة الأولي لمقاتلة السوفييت الذين يحتلون أرض المسلمين، لكن في المرة الثانية قصد أفغانستان، بعد أن حل الأمريكيون في موقع العداء والخصومة، محل السوفييت الذين اندثرت امبراطوريتهم، بسبب عوامل كثيرة، كان الغوص في الوحل الأفغاني من أهم أسبابها. لكن بعد الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) الضربة الأكبر في تاريخ الصراع والتحول في المنطقة، والتي غيرت كل شيء، اصبح ثمة مفهوم جديد للصراع.

لقد طورت الولايات المتحدة استراتيجيتها من سياسة الاحتواء والردع الي سياسة الضربة الاستباقية، خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وسيطرة المحافظين الجدد علي البيت الأبيض. التنظيمات السلفية الجهادية وعلي رأسها القاعدة، هي الأخري كانت قد حزمت أمرها بشكل أبكر من النقاشات التي كانت تدور في واشنطن، فقد انتهجت هذه التيارات وأعلنت وأظهرت بأنها سوف تعمد الي أسلوب الحرب الاستباقية، أي الحرب الهجومية، بشكل ظاهر قبل واشنطن بوقت طويل، فبدأت بتفجير سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام، وأتبعت ذلك بمهاجمة المدمرة الأمريكية يو أس أس كول في اليمن، وتوجتها بهجمات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر). فالسلفية

الجهادية والادارة الأمريكية كلاهما يتبني الاستراتيجية ذاتها وبالتالي كلاهما يشترك في نفس النقطة.

وقع الاجتياح الأمريكي لأفغانستان أواخر عام ألفين وواحد، بهدف القضاء علي حكم طالبان عامة بزعامة الملا عمر، وتنظيم القاعدة خاصة، بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، ولم يلتفت أحد ـ حينذاك ـ الي الزرقاوي كقائد خطر يشكل تهديداً. في تشرين الثاني (نوفمبر) 2001 غادر الزرقاوي ومجموعته معسكر هيرات، بعد حصارهم من قبل الأفغان الموالين لقوات التحالف، القادمة من مناطق الحدود المتاخمة لايران. توجه الزرقاوي الي قندهار علي رأس قافلة سيارة ضخمة، تحمل عائلات مقاتليه من نساء وأطفال، علاوة علي الأفغان ممن كانوا ضمن شبكته، كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر والصعاب في ظل اشتداد القصف الجوي، وتقدم المعارضة الأفغانية المتحالفة مع أمريكا، مما زاد صعوبات الحركة والانتقال حيث استغرقت الرحلة ثلاثة أيام.

شارك الزرقاوي ومجموعته الي جانب طالبان والقاعدة في المعارك العنيفة التي دارت في قندهار وتورا بورا، حيث أصيب الزرقاوي في معارك قندهار بكسر في أحد أضلاعه اليسري، جراء سقوط أجزاء من بناء كان بداخله، تعرض لقصف جوي، ولم يصب الزرقاوي في رجله ولم يفقدها، خلاف ما يشاع علي نطاق واسع.

رغم شدة المعارك في تورا بورا، استطاع الزرقاوي الانسحاب مع مجموعته سالما من القصف الأمريكي والطوق الذي فرض علي المنطقة، ويري اتباعه في ذلك دلالة علي حنكته العسكرية.

مغادرة أفغانستان كان الخيار الوحيد المتاح أمام

الزرقاوي بعد سقوط قندهار وقصف تورا بورا، اذ بات واضحا أن عهد طالبان قد انتهي. عمل الزرقاوي قبل مغادرة أفغانستان، علي تأمين سلامة زوجات وأبناء رفاقه، فتأكد من اخراجهم الي الباكستان قبل مغادرتهم النهائية لأفغانستان.

في طهران

لم يكن أمام الزرقاوي خيارات متعددة، فباكستان كان اعتقل بها، وتم ابعاده منها بسبب مخالفته قوانين الاقامة، علاوة علي أن تحالفها مع الولايات المتحدة في الحرب علي أفغانستان، يجعلها مكانا غير آمن، والأردن لا يمكنه العودة اليه بسبب حكم غيابي بالاعدام كان صدر بحقه، فقرر التوجه الي ايران.
وضع الزرقاوي الترتيبات المناسبة لتسهيل نقل أفراد شبكته من أفغانستان الي ايران، عبر باكستان، فعين عبد الهادي دغلس قائدا لمجموعته، قبل توجهه منفردا الي ايران، حيث رتب اقامة قاعدة لوجستية في مدينة زاهدان الايرانية الواقعة قرب الحدود مع باكستان، بمساعدة ايرانيين من السنة، كان علي علاقة طيبة معهم حين كان له معسكر في هيرات، ثم أقام مركزا آخر في طهران، بمزرعة يملكها القائد الأفغاني حكمت يار، اتخذ منها مقرا للقيادة، وهناك عقد الزرقاوي مجلس شوري لقادة شبكته ابلغهم فيه أنه قرر التوجه الي العراق، لاعتقاده أنها ستكون ساحة المعركة المقبلة مع الأمريكيين. قرار الزرقاوي التوجه الي العراق، كان اتخذه بسرية مطلقة، فلم يكن أحد من أفراد مجموعته يعرفون وجهتهم حين غادروا الي باكستان، ومن ثم الي ايران.

وزع الزرقاوي أفراد شبكته علي عدد من الفنادق المنتشرة في طهران، خاصة من يملكون وثائق سفر رسمية، ووضع في بيوت خاصة البعض الأخر من أعضاء شبكته، ممن لا يملكون وثائق اثبات الشخصية.
عمل الزرقاوي في طهران بداية علي نقل عائلات أفراد شبكته جوا الي تركيا، تمهيدا لنقلهم لاحقا الي العراق، وطلب ممن يملكون وثائقهم الرسمية من مقاتليه التوجه جوا الي تركيا، ومن هناك الي العراق، في حين قام بترتيب نقل من لا يملكون وثائق سفر رسمية الي شمال العراق بشكل غير رسمي، وفي أثناء تنفيذ هذه الخطة، داهمت المخابرات الايرانية عددا من الفنادق التي يقيم بها أفراد مجموعته، وذلك عشية استعدادهم للسفر الي تركيا، حيث تم اعتقال قرابة ثلاثة وعشرين شخصا، وفي المقدمة منهم ساعده الأيمن خالد العاروري، مما حمل الزرقاوي الي سرعة التوجه مع من تبقي من أفراد شبكته الي شمال العراق. بعد أن اتفق الزرقاوي مع العراقي الكردي (وريا صالح) الملقب أبو عبد الله الشافعي، من قادة تنظيم أنصار الاسلام، علي تولي التدريب والدعم العسكري لشبكته لحين استكمال بنائها والاعتماد علي نفسها.

كردستان

أسس الزرقاوي في كردستان العراق قاعدتين لوجستيتين: الأولي في دارغايش خان، الثانية كانت في سرغات. نصب الفلسطيني عبد الهادي دغلس رفيق طفولته وصباه في مدينة الزرقاء، أميرا عليها، وكلفه مسؤولية تنسيق العلاقة بين شبكته وجماعة أنصار الاسلام

الكردية، وقد قتل دغلس مع بداية الهجوم الأمريكي علي العراق في شهر آذار (مارس) عام 2003. وقـــــد رثاه الزرقاوي بنفسه في أول خطبة ألقاها من العراق، وكانت باســم الحق بالقافلة :

فكم من الأحباب يا رب اصطفيتهم واتخذتهم من بيننا وحرمتنا من ذلك بذنوبنا اللهم فلا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم وألحقنا بهم.

وان كنت أنسي.. فلا أنسي في هذا المقام اخواننا الشهداء ـ رحمهم الله ـ الذين كانوا معنا في السراء والضراء وصبروا معنا علي لأواء الطريق وعلي رأسهم الأخ الحبيب الغالي الشهيد الحي ـ نحسبه كذلك والله حسيبه ـ أبو عبيدة عبد الهادي دغلس فوالله ما رزئت بمصيبة ـ بعد أن هداني الله ـ بمثل فقد هذا الأخ، هذا الأخ الذي كنت استصغر نفسي أمامه لفرط شجاعته واقدامه وصبره وحسن خلقه.

فعلي مثل عبد الهادي فلتــبـكِ العيون.

فعلي مثل عبد الهادي فلتــبـكِ العيون.

فكلما تذكرته تذكرت حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي رواه أحمد وابن حيان، عن ابن مسعود أنه قال:

عجب ربنا من رجلين... وذكر منهما رجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه وعلم ما عليه في الانهزام، وماله في الرجوع، فرجع حتي يهرق دمه، فيقول الله لملائكته: انظروا الي عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتي يهرق دمه .

فيوم أن اضطر المجاهدون الي أن يخلوا مواقعهم نتيجة القصف الشديد والمتواصل أبي أن يرجع، وتبايع علي الموت هو وثلة من اخوانه وانغمسوا في العدو نسأل الله أن يتقبلهم. ماتوا وغُـيّـب في التراب شخوصهم

فالنســـر مسك والعظام رميم
فوالله لقد كان جبلاً من الجبال، وأسداً من الأسود، وعابداً من العباد، وزاهداً من الزهاد، تري الصلاح في وجهه، مسعّـر حرب لو كان معه رجال، لا تأخذه في الله لومة لائم، شديداً علي أعداء الله، رحيماً وبراً باخوانه.
رحمك الله يا عبد الهادي رحمة واسعة، لقد كنت ـ والله ـ الأخ الحبيب والصديق الشفيق، وكنت السمع والبصر.
فوالله ان مكانك مازال شاغراً.. لا يستطيع أن يملأه أحد، وبفقدك فقدت عضواً من أعضائي.
وان كنت أنسي فلن أنس ذلك اليوم الذي قلت لي فيه: اني لأدعو لك أكثر مما أدعو لوالدي.
فأي خسارة بعد هذه الخسارة، وأي رزية بعد هذه الرزية، فقدتك في وقت كنت أحوج ما أكون اليك فيه.
نسأل الله عز وجل أن يرفعك في عليين، وأن يلحقنا بك غير مفتونين شهداء صالحين مع النبيين والصديقين وحَسُن أولئك رفيقا، أنت واخوانك الذين لم أذكرهم لضيق المقام.
لَيسق عهدكم عهد الســرور فما
كنـــتم لأرواحــنا الا رياحينَ
بعد أسر خالد العاروري في ايران، ومقتل عبد الهادي دغلس في شمال العراق، اتخذ الزرقاوي من منطقة الجزيرة غرب الأنبار مقرا رئيسا لتنظيمه. وأوكل الي طبيب الأسنان السوري سليمان خالد درويش المعروف بلقب أبو الغادية، مهام الاثنين،كما أوكل اليه مسؤولية تدريب اتباعه علي صناعة المتفجرات، بعد أن استقرت زوجته الثانية ـ وهي فلسطينية ـ وابنهما خالد في الأردن، حتي أصبح أبو الغادية من أهم عناصر شبكة الزرقاوي التي قررت الانتقام من أمريكا.

اعتمد الزرقاوي في بناء شبكته علي أسس تختلف عن تلك التي اعتمد عليها بن لادن والظواهري، اللذان ركزا علي متطوعين من الجزيرة العربية ومصر بشكل كبير، وعلي تمويل يعتمد علي أموال متدفقة من الجزيرة العربية، في حين اعتمد الزرقاوي في بناء شبكته علي أهل بلاد الشام (الأردن، فلسطين وسورية)، ولاحقا علي العراقيين وبقية العرب، حتي بات أعضاؤها يسمون بجند الشام، وقد استثمر الزرقاوي شتات السوريين الموزعين في دول مختلفة من العالم، بصفتهم لاجئين سياسيين، جراء البطش الذي تعرضت له جماعة الاخوان المسلمين وبقية الجماعات الاسلامية في المدن السورية، مثل حلب وحماة، أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وباتوا علي ما يبدو يميلون الي الأفكار الأكثر تشددا وعنفا، بعد أن كانوا حركة دعوية، كرد فعل علي العنف الذي مورس ضدهم وفق ما هو معتقد، فالتحق قسم غير قليل من هؤلاء وأبنائهم بالمجاهدين في أفغانستان، محملين بمبالغ طائلة من الأموال، جمعوها أثناء عملهم في أوروبا والأمريكيتين وبقية بلدان العالم، فتلقفهم الزرقاوي واستقطبهم، من خلال مساعده السوري أبو الغادية، بعد أن وضع استراتيجية خاصة لادارة المعركة في العراق.

العارفون بهيكلية شبكة الزرقاوي، يشكون في جدوي تخصيص جوائز مالية لاعتقال أميرها أبو مصعب، لأنه عمد وهو في هيرات الي بناء مجتمع اسلامي مصغر يحتضن شبكته، لحمايتها من الاختراق، فعلي سبيل المثال فقد أقدم علي الزواج من ابنة الشيخ ياسين الذي قاد سيارة اسعاف مفخخة، اغتال فيها الزعيم الشيعي باقر الحكيم، وزوج شقيقته الي خالد

العاروري، وتزوج أبو الغادية من ابنة أبي محمد أحد مقاتلي الشبكة. وهكذا أصبحت علاقة المصاهرة تربط معظم القادة الرئيسيين بشبكة الزرقاوي مع بعضهم البعض.

رغم تلك الأحداث الجسام التي مر بها الزرقاوي، الا أنه بقي شخصا بعيدا عن الأضواء، الي أن سلط الأردن الكشافات الساطعة عليه، حين اتهمه بالوقوف وراء اغتيال الدبلوماسي الأمريكي لورنس فولي، الذي وقع بالعاصمة الأردنية عمان، في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام 2002، وقد تبني عملية الاغتيال آنذاك، تنظيم أطلق علي نفسه اسم شرفاء الأردن، في بيان حمل رقم اثنين، وكان البيان رقم واحد، قد صدر عن هذا التنظيم في السادس من أب (أغسطس) عام ألفين وواحد، حين تبني مسؤولية اغتيال اسحاق سنير، الذي وصفه البيان بأنه عميل للموساد الاسرائيلي، كان يسكن في العاصمة الأردنية بجوار فولي حينذاك.

لم يحظ الزرقاوي أيضاً باهتمام أحد قبل عامين من اغتيال فولي، حين أصدرت محكمة أمن الدولة في الأردن، حكما غيابيا بحقه مع أحد عشر شخصا أخرين، بالسجن خمسة عشر عاما، في أيلول (سبتمبر) عام 2000، بتهمة التخطيط لهجمات علي مواقع سياحية ودينية في الأردن، في مطلع الألفية الثالثة، تنفيذا لتعليمات تنظيم القاعدة وفق قرار الحكم.

اتهام الزرقاوي بعلاقته في اغتيال الدبلوماسي الأمريكي فولي، كان له هذه المرة وقعه الخاص، فالقتيل أمريكي، ورئيس الحكومة الأردنية حينذاك علي أبو الراغب، أضفي علي هذه الحادثة بعدا دوليا، ليس لأن القتيل دبلوماسي

أمريكي فحسب، بل لأن أبو الراغب، أطلق أول اشارة تربط العراق بالقاعدة، بترجيحه وجود الزرقاوي في شمال العراق، وأنه علي صلة بتنظيم أنصار الاسلام.

لكن اللافت في مجريات المحاكمة، أن الدليل الذي قدمه الادعاء العام لاثبات علاقة الزرقاوي بالمجموعة المتهمة بتنفيذ العملية، اتصالات هاتفية قال أنها جرت بينهم عبر أحد مساعديه يدعي أبو الغادية، ودخول الزرقاوي الأردن في شهر أيلول (سبتمبر) من العام ذاته، أي قبل شهر واحد من الاغتيال، والتقائه بالمتهمين وفق لائحة الاتهام. فكيف دخل الزرقاوي للأردن وخرج منه وهو محكوم غيابيا بالسجن خمسة عشر عاما، دون أن تدري السلطات الأردنية؟!

اهتمت الوكالات الأمنية الأمريكية بالتحقيقات الخاصة باغتيال فولي، حيث قامت الـ (I.B.F) بجمع الأدلة التي تدين مشاركة الزرقاوي بعملية الاغتيال، رغم أن هذه المشاركة الأمريكية مخالفة للقوانين الأردنية، مما دفع محامي الدفاع الي تسجيل اعتراضاته علي نتيجة التحقيقات المبنية علي تلك المشاركة.

اهتمام الادارة الأمريكية بقضية اغتيال فولي، والسعي لتأكيد ربطها بالزرقاوي، تزامن مع سعي الولايات المتحدة الي تحشيد دول العالم والرأي العام العالمي، استعدادا لاجتياح العراق، بدعوي امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل، ودعمه للارهاب العالمي.

في السادس من نيسان (ابريل) عام 2004، أصدرت محكمة أمن الدولة في الأردن، الأحكام بحق المتهمين باغتيال لورانس فولي، بمن فيهم أبو مصعب الزرقاوي.

بعد أسبوعين من اصدار هذا الحكم باعدام الزرقاوي، أعلنت السلطات الأردنية، أنها

أحبطت مخططا أعده الزرقاوي للقيام بهجوم قالت أنه كيماوي، كان سيستهدف مقر المخابرات العامة، والسفارة الأمريكية، ومقر رئاسة الوزراء، وكان سيؤدي ـ وفق البيان الرسمي الحكومي ـ الي مقتل واصابة قرابة سبعين ألف شخص. قائد المجموعة المكلفة بهذا الهجوم عزمي الجيوسي، ألقت قوي الأمن الأردنية القبض عليه، مع عدد من أفراد مجموعته، حين داهمت منزله في أطراف مدينة اربد شمال الأردن، واعتقلت بقية أفراد المجموعة، وطاردت آخرين وحاصرتهم في منزل شرق العاصمة عمان، فقتلت أربعة منهم قيل أنهم رفضوا الاستسلام، واعتقلت البقية، نشرت السلطات الأردنية اعترافات منسوبة اليهم، قالوا فيها أن الزرقاوي خطط لهذه العملية ومولها، ودرب عناصرها علي صنع المتفجرات الكيماوية.

هذا العمل العسكري، كان يدار بسرية مطلقة، فقد كان الجيوسي قد وصل الي الأردن قبل ستة أشهر من اعتقاله، الا أن اكتشاف أجهزة الأمن السورية أن مجموعة الزرقاوي تتخذ من سورية قاعدة لوجستية لعمل يعد له في الأردن، وابلاغ الأردن بالتفاصيل، أسهم في احباط الخطة. وأفقد الزرقاوي قاعدة لوجستية مهمة له في سورية.

لكن بعد تسعة أيام من نشر السلطات الأردنية لهذه الاعترافات كانت المفاجأة، حيث أصدر تنظيم (شرفاء الأردن) الذي كان تبني المسؤولية عن اغتيال فولي في حينه، بيانه الثالث يجدد فيه تبنيه لعملية الاغتيال، وأرفق مع البيان الذي أرسله الي محامي الدفاع عن المتهمين بالاغتيال، مظروفي طلقتين للمسدس الذي استخدم بعمليتي اغتيال فولي،

ومن قبله الاسرائيلي، نافيا أن يكون للمحكوم عليهم علاقة بهذه القضية.
تهمة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل أُسندت لمفتشي الأمم المتحدة، لكنهم لم يعطوا الادارة الأمريكية ما سعت اليه، من تأكيدات امتلاك العـراق لها، كما أن تصريحات كولن باول وزير الخارجـية الأمريكية في الرابع من نيسان (ابريل) عام 2004، من أن الأدلة التي قدمها في كلمته بمجلس الأمن في الرابع من شباط (فبراير) عام 2003، لم تكن مؤكدة ليعتد بها، وأسهم علي ما يبدو في اغلاق هذا الملف، فواصلت واشنطن التركيز علي ما بدأته في مسألة علاقة العراق بالارهاب العالمي، وتحديدا مع تنظيم القاعدة، وقد تكون وجدت في الزرقاوي الشخص المناسب، لتتهمه بصلة الوصل بين نظام حكم صدام حسين العلماني، وتنظيم الـــقاعدة الأصولي، بعد أن قالت أن الزرقاوي تلقي العلاج في أحد مستشفيات العاصمة العراقية بغداد.
مشايخ الصحوة السعودية حرروا السلفية من ربقة الاتصال بالسلطة الرسمية.. وتحولت سلاحاً في يد الجهاديين
استراتيجية القاعدة في العراق ترمي الي تعويق ولادة سلطة محلية.. وجعل البلاد ساحة للمواجهة مع الامريكيين

العراق الاحتلال وتفجير سفارة

فجر العشرين من آذار (مارس) 2003 بدأ الهجوم الأمريكي علي العراق، وكنت قد وصلت الي بغداد لتغطية هذه الحرب قبل ذلك بثلاثة أيام، وقد رتبت أموري وفريقي التلفزيوني، علي أن المعركة ستطول أشهراً عدة، وأكثر ما

كان يقلق الصحافيين في بغداد استخدام أسلحة الدمار الشامل من قبل العراقيين، عندما يخسرون المعركة. هاجس الموت منها كان أكبر من هاجس الموت من القصف الأمريكي العنيف علي بغداد.

السابع والثامن من نيسان (ابريل) عام 2003 كانا الأطول في أيام الحرب، فقد بات واضحا أن نظام الحكم في العراق قد انتهي، والكل بانتظار أن يستخدم ذلك النظام أخر طلقة في جعبته، لكن القوات الأمريكية دخلت بغداد في التاسع من نيسان (ابريل) عام 2003 دون مقاومة تذكر، حينها الكل أدرك أن لا وجود لأخر طلقة.. لا وجود لأسلحة دمار شامل، فقررت مغادرة بغداد مع جثامين زملائنا الصحافيين الذين قتلوا في مكتب الجزيرة وفندق فلسطين، وطوال قرابة ألف كيلو متر، وهي المسافة بين بغداد وعمان، وأنا مستغرق بالتفكير بحقيقة وجود صلة بين الزرقاوي ونظام صدام حسين، بعد أن رجحت مجريات الحرب أن لا وجود لأسلحة الدمار الشامل.

بعد دخول القوات الأمريكية بغداد، لم تقدم الادارة الأمريكية أدلة تثبت امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل. كما أنها لم تفلح في اثبات علاقة النظام العراقي السابق بالارهاب الدولي عامة، وبالقاعدة خاصة. وهما التهمتان اللتان أعلنتهما واشنطن سببا لاحتلال العراق، واسقاط نظام حكمه، علاوة علي تبشيرها بنشر الديمقراطية واحترام حقوق الانسان.

حين غادرت بغداد في التاسع من نيسان (ابريل)، كان الشعور السائد أن العراق سيرزح تحت احتلال طويل دون أية مقاومة، ذلك الشعور تولد نتيجة احتلال بغداد دون قتال، علاوة علي النقاشات التي كانت تدور أثناء

الحرب مع بعض العراقيين من صحافيين وأكاديميين، كانت خلاصتها، أنهم يأملون أن تساعدهم الولايات المتحدة في اعادة بناء بلدهم التي أنهكها الحصار الطويل، لكن بعد شهرين من احتلال القوات الأمريكية للعراق، بدأت عمليات المقاومة العسكرية تستهدف هذا الوجود، ومرة أخري، حمّلت الادارة الأمريكية الزرقاوي مسؤولية هذه العمليات.

شاهدت بأم عيني تدفق المتطوعين العرب الي العراق أثناء الحرب، لمقاتلة الأمريكيين، وزرتهم في مواقع تجمعاتهم، واستمعت الي شهاداتهم، سواء في المستشفيات بعد أصابتهم نتيجة القصف الأمريكي، أو بعد هروبهم من مناطق عراقية رفضت استقبالهم. لكن ذلك كان أثناء الحرب، ربما تكون الصورة اختلفت بعد ذلك. لكن لم يذكر أي من هؤلاء المتطوعين شيئا عن الزرقاوي حينذاك.

في الثامن من آب (أغسطس) عام 2003 تعرضت السفارة الأردنية في بغداد لعملية تفجيرية، كما تعرض مقر الأمم المتحدة في بغداد، في التاسع عشر من الشهر ذاته لعملية مماثلة، أصابع الاتهام أشارت مرة أخري الي وقوف الزرقاوي وراء هاتين العمليتين. الا أن الزرقاوي تبني المسؤولية عن التفجير الثاني دون الأول، وعن عمليات أخري، وفق تسجيل صوتي له، صدر بعد ثمانية أشهر، من نسف مقر الأمم المتحدة:

فقد أكرمنا اللهُ فقطفنا رؤوسهم، ومزَّقنا أجسادهم في مواطنَ عديدة، فالأمم المتحدة في بغداد وقوات التحالفِ في كَربلاء، والطِّليان في الناصرية، والقواتُ الأمريكية علي جسرِ الخالدية، والمخابراتُ الأمريكيةُ في فندقِ الشاهين، والقصرُ الجمهوريُ في بغداد، والسي

آي ايه في فُندقِ الرشيد، والقوات البولنديةِ في الحلة، وقد أُحيطت هذه العمليةُ المباركة، بتكتيمٍ اعلاميٍ غيرِ مسبوقٍ في العراق وأظهرَ الاعلامُ الخبيث، أنَّ المتضررَ من هذه العملية هم الابرياءُ وحدهم، ولم يذكروا أن أربعاً من الطائراتِ المروحية، هبطت الي الموقع لنقلِ الجُـثثِ النجسة، من قواتِ التحالفِ الصليبي، وأن قتلاهم يزيد علي مئتين جندي، أخيرا وليس آخرا الموساد الاسرائيلي في فندق جبل لبنان، وغيرُها وغيرُها في قائمةٍ طويلة، مضتْ بعضُ فصولها،والقادِمُ أدهي وأمرُّ بعونِ الله.

وَنحنُ نَتحدَّي الاِعلامَ الأمريكي الكاذب، بأن يُبينَ حقيقةَ الدَّمار، وحجمَ الخسائِر التي حلَّت بقواتِه، فَرامبُو هوليوود لا مكانَ له بَينَ أسودِ الاِسلامِ وأبطاله، ولنَا معهم بإذنِ اللهِ صولاتٌ وَجَولات

واذا كَانَ جُون أبي زيد قَد نجا هذِه المرَّةَ مِنْ سُيوفِنا، فَنَحنُ له ولبريمرِ وَلِجنرالاتِهم وَجُنودِهم وَأعوانِهم بالمِرصادِ، نتخطَّفُهم كالطيرِ، ونقطعُ عليهم كُلَّ طَريقٍ، ونُشرِّدُ بهم من خَلفَهم.

بعد شهر من تفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد، أعلنت وزارة المالية الأمريكية في 24 أيلول (سبتمبر) عام 2003، تجميد أموال ابو مصعب الزرقاوي، ضمن ستة أشخاص صنفتهم ارهابيين دوليين. وفي الشهر التالي أعلنت السلطات الأمريكية في العراق، تخصيص خمسة ملايين دولار، مكافأة لمن يدلي بمعلومات تؤدي الي الزرقاوي.

لم يتوقف أمر اتهام الزرقاوي بالوقوف وراء العمليات التي تقع داخل العراق، بل تعداه الي أوروبا، حين وُجهت أصابع الاتهام الي الزرقاوي مجددا، في الوقوف وراء تفجيرات استنبول، في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2003.

في الثاني من شباط (فبراير) عام 2004 تعرضت كربلاء والكاظمية الي عمليات تفجير ضخمة، كان من الصعب توجيه الاتهام الي الزرقاوي بالوقوف ورائهما دون دليل، نظرا لأهميتها وضخامتها، فكانت الرسالة التي كشفت السلطات الأمريكية عنها، وقالت أن الزرقاوي كتبها الي قادة القاعدة، وأنها ضبطتها علي قرص مدمج مع أحد أعوان أسامة بن لادن.

السلطات الأمريكية في العراق كانت قد أعلنت قبل أسبوع من ذلك، أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير)، أنه تم اعتقال الباكستاني حسن جهل في العراق. وعليه تم الربط، بين هذا الاعتقال، وضبط الرسالة. لكن الجديد هنا في مضمون هذه الرسالة: أن الزرقاوي استكمل بناء شبكته الخاصة في العراق.

تلك الرسالة ذات المصدر الأمريكي، اذا ما سلمنا بصحة نسبتها الي الزرقاوي، تثير تساؤلات كبيرة، فهل تتوافق مع ما يؤمن به الزرقاوي من فكر وقناعات، والي أي حد تعكس هذه القناعات، فكر مدرسته المذهبية التي باتت تسمي السلفية الجهادية، خاصة ما يتعلق منها، بنظرتهم الي الشيعة، وفي أي خانة يضعونهم، مع المسلمين أو مع غيرهم.

بعد ثمانية أيام من تفجيرات كربلاء والكاظمية، أعلنت السلطات الأمريكية بالعراق، في الحادي عشر من ذات الشهر شباط (فبراير)، مضاعفة المكافأة المرصودة لمن يدلي بمعلومات عن الزرقاوي، وأصبحت عشرة ملايين دولار. في محاولة من السلطات الأمريكية لاضفاء الصدقية علي أن الرسالة التي ضبطتها، كتبها الزرقاوي بنفسه.

لم يكتف الزرقاوي بالتوعد بمقاتلة الشيعة، بل

أعلن صراحة مسؤوليته عن اغتيال محمد باقر الحكيم، رئيس المجلس الأعلي للثورة الاسلامية في العراق، في الانفجار الذي استهدفه بالنجف في التاسع والعشرين من آب (أغسطس) عام 2003. وقد كلف الزرقاوي والد زوجته الثانية، الشيخ ياسين، لتنفيذ عملية اغتيال محمد باقر الحكيم.

اذا ما تفحصنا طبيعة تفجيرات كربلاء والكاظمية، نري انها استهدفت الشيعة، في مناسبة هي الأعظم دينيا لديهم، فهل باتت مقاتلة الشيعة، أولوية لدي الزرقاوي، علي مقاتلة الأمريكان، في ظل التحالفات الناشئة، بعد تصاعد المقاومة للوجود الأمريكي في العراق، في المناطق التي أصطلح علي تسميتها بالمثلث السني؟ مواقف الزرقاوي المتشددة لم تقتصر علي الشيعة وحدهم، بل شملت مسلمين سنة أيضا، عربا وأكرادا، معتبرا أن التخوف من حرب طائفية، ما هي الا دعوات للسكوت علي الاحتلال.

البيان الذي نفي فيه تنظيم القاعدة مسؤوليته عن تفجيرات كربلاء والكاظمية. يؤكد ما جاء في ذيل رسالة الزرقاوي، التي ضبطتها الأجهزة الأمريكية في العراق، من أنه ليس جزءا من تنظيم القاعدة، وأن لكل منهما موقفه الخاص تجاه التعامل مع الشيعة في العراق، رغم اتفاقهما العقائدي علي الموقف منهم.

شهد النصف الأول من عام 2004، نقلة نوعية في عمل الزرقاوي وشبكته المسماة التوحيد والجهاد، فبعد الاعلان عن ولادة الشبكة عبر البيان العسكري رقم واحد، الخاص بالهجوم البحري علي ميناء البصرة، والذي حمل توقيع الزرقاوي شخصيا، توالي صدور البيانات العسكرية، لكن بتوقيع الجناح العسكري، وأصبح

لديهم مكتبا اعلاميا خاصا بشبكة التوحيد والجهاد، مما يوحي أن شبكة الزرقاوي، باتت تعتمد العمل المؤسسي المنظم. وامعانا من الزرقاوي في تأكيد حضوره القوي بالعراق، وتقديم الدليل المادي أنه وراء التفجيرات الكبيرة التي حدثت في العراق، والتي أعلن مسؤوليته عنها في بيانات خطية، وأنه وراء عمليات اغتيال كبار المسؤولين من أعضاء مجلس الحكم الانتقالي في العراق وغيرهم، وزع الزرقاوي شريطا مصورا عبر شبكة الانترنت يظهره وهو يقوم شخصيا بقطع رأس المواطن الأمريكي نيكولاس بيرغ، بعد أن تلا بيانا بصوته، يبرر فيه هذا التصرف بأنه انتقام لما جري من انتهاكات بحق السجناء في معتقل أبو غريب وغيره، متوعدا بالمزيد، وبذات الأسلوب الذي كرره مع المختطف الكوري. البيان الذي أصدره الزرقاوي متبنيا مسؤولية الهجوم البحري علي ميناء البصرة جنوب العراق، في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) عام 2004، يؤكد بشكل قاطع، أنه لم تعد هناك أية صلة للزرقاوي بتنظيم القاعدة، فقد وُقع البيان باسم أبو مصعب الزرقاوي أمير جماعة التوحيد والجهاد ، مما يعني أنه قرر الاعلان عن شبكته الخاصة التي بدأ في انشائها، حين أسس معسكره الخاص في هيرات. حمل بيان البصرة الرقم واحد، مما يعني أن الزرقاوي وصل الي طريق مسدود مع قادة القاعدة، في أن يوافقوه علي رأيه الخاص بالموقف من الشيعة، ذلك الموقف الذي ضمنه الرسالة التي ضبطتها السلطات الأمريكية في العراق، شرطا للعمل بامرتهم، وفي اشارة البيان الي أن عملية البصرة جاءت تأسيا بما فعله اخوانهم ليوث القاعدة بالمدمرة كول ، هي تأكيد علني صريح

مباشر، أنه لا يتبع للقاعدة، وأنه قادر أن يفعل مثلهم وأكثر.
هذا الوضع يعني أن شبكتي الزرقاوي وبن لادن ستتنافسان في ايقاع الضربات الأكثر ايلاما في خصمهما المشترك، ليثبت كل منهما، أنه الأجدر في أن يُقدم له الجميع الولاء والطاعة. ليكون رمزا لكل الجماعات الاسلامية المسلحة في العالم، التي تنتمي الي ما أصطلح علي تسميته بالسلفية الجهادية.